﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾

[الحديد: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تناسق التّنزيه الإلهيّ بين ختام الواقعة وافتتاح الحديد

لمّا خُتِمت سورة الواقعة بالأمر بتنزيه الحقّ سبحانَه عمّا أنكره المكذّبون من البعث والجزاء؛ استهلّ سورة الحديد تقريرًا لذلك التّنزيه، وبيانًا له بالبرهان القاطع والدّليل السّاطع، فكأنّ قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تعليلٌ لآخر الواقعة، وتأكيدٌ لعظمة المسبَّح بكلّ ما في الكون من آياتٍ باهرات[1]، فالعالم كلّه يسبّح بحمد ربّه، ويشهد بقدرته وحكمته على صحّة ما جاء به الوحيُ من أمر المعاد، فكان هذا الاتّصال بين السّورتين بليغًا في إظهار تناسق القرآن، واتّساق معانيه حتّى كأنّها حِلَقٌ مترابطة في سلسلة واحدة من البيان المعجِز.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبَّحَ﴾: فعلٌ دالّ على المُضيِّ، وجذره اللّغويّ: (سبح)، وهو يدور على جنسٍ من العبادة، والأصل فيه: البُعد، تقول: سبَحتُ في الأرض؛ إذا أبعدتَ فيها[2]، والتّسبيح: التّنزيه والتّقديس والتّبرئة[3]؛ وهو بمعنى قول القائل: سبحانَ الله، ويُطْلَق أيضًا على التّنفّل والتّطوّع بالعبادة[4]. وقوله تعالى في الآية: ﴿سَبَّحَ﴾ دالّ على تنزيهُ الله تعالى عمّا لا يليق به سبحانه، ونفيُ الشّريك في الألوهيّة، وتقريرُ الوحدانيّة[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 251.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح)، والخطابي، غريب الحديث، ص: 685.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سبح)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 96.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 356.

2) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ من الجذر الثّلاثيّ (عزز)، وعزَّ الشّيءُ: لفظٌ جامع لما قلّ وندُر حتّى يكادُ لا يوجد من قِلَّته. وهو في الأصل: دالّ على شدّة وقوّة، والعزّة لله جلَّ ثناؤه، وعزّ الرّجلُ؛ إذا بلغ حدّ العزَّة، واعتزّ بفلان: تشرَّف به، وعزَّ يعِزّ؛ إذا صار عزيزًا، وعزّ يعُزُّ؛ إذا قهر[1]، والعزُّ: ضدُّ الذّلّ[2]. ومعنى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ في الآية: مَن جعل الخلق يفتقرون إليه ويحتاجونه، وهو القاهر الغالب الذي يملكُ كلّ مالك[3].

3) ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: صيغة مبالغة على وزن (فَعيل) من الفعل: حكمَ يَحْكُمُ، والجذر اللّغويّ منه: (حكم)، وهو في الأصل يدلُّ على المنع، وأوّل ما يرد في الذّكر؛ هو الحُكْمُ المتمثّل في منع الظّلم، ومِنْهُ سمّيت حَكَمَةُ الدّابّة؛ لأنَّها تحولُ دونها، يقال حكمتُ الدّابّة وأحكمتُها. والحكمة: هي على هذا القياس؛ لأنَّها تردّ الجهل وتمنَع منه[4]، و"الحَكَم: الله ﷻ، وهو أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحكم...، والحُكْمُ: العلم والفقه... ، والحُكْم أيضًا: القضاء بالعدل"[5]. ومعنى ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في الآية: "الذي جميعُ أفعاله على وفْقِ الحِكْمَةِ والصّواب"[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّهُ ﷻ عن عظمته وجلاله وسَعَةِ ملكه أنّ كلّ ما في السّماوات والأرض من حيٍّ ناطق، أو صامتٍ وجامدٍ، يسبّح بحمد ربّه، وينزّهه عن كلّ نقص، خاضع لسلطانه منقاد لعزّته، ظاهرة

التّسبيح الكونيّ من مظاهر العزّة الإلهيّة والحكمة الرّبّانيّة في تسخير المخلوقات

(1) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عز).
(2) الجوهري، الصحاح: (عزز).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 512.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حكم).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (حكم).
(6) الخازن، لباب التأويل: 4/ 245.

فيه آثارُ حكمتِه البالغة، ولذلك قرن التّسبيح بقوله عزّ من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ فجمع بين إثباتِ عموم افتقار الخلائق كلّها لربّها في جميع أحوالها، وعموم قهره وسلطانه على الأشياء بأسْرِها، وعموم حكمته في خلقه وتدبيره، فسُبْحان من أتقنَ صُنْعَه، وأحكَمَ شَرْعَه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ تعدّد بعض أسماءِ الله الحسنى بهذه الكثرة في مطلع السّورة:

مطلع السّورة وسمة الجلال في تجلّي أسمائه العظمى وصفاته العلى

جاء مطلعُ سورة الحديد مفعمًا بجلال الأسماء الإلهيَّة، حافلًا بصفاته العُلى، حتّى اشتملت على معاني ثلاث عشرة صفة من أسمائه الحسنى وهي: (اللّه، ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، القَدير، ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾، ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾، العليم، البصير، مع صفاتٍ أُخرى تُستفاد من الأفعالِ - وإن لم يصحَّ اشتقاقُ أسماءٍ مِنْها؛ لِما تقرَّر مِن أنَّ باب الصِّفاتِ أوسعُ مِن باب الأسماء - ؛ وهذه الصِّفاتُ هي: الإحياء، والإماتة، والتَّدبير، فجاءت الألفاظ متعانقة، والمعاني متآزرة، ترسم صورة الجلال والكمال، وتنطق بوحدانيَّةٍ كاملة لا نقص فيها ولا عجز، حتّى قال ابن عبّاس ﷺ: إنّ اسم اللّه الأعظم ليتجلّى في هذه الآيات السّتّ من أوّل السّورة، بما اجتمع فيها من الأسماء[2]، وتكامل فيها من الصّفات.

تجلّيات الأسماءِ والصّفات لإقامة العبادة بحقّ ربّ السّماوات

إنّ المتأمّل في مطلع هذه السّورة الكريمة يلحظ تتابعًا بديعًا لذِكْرِ صفات اللّه الحسنى؛ حيث تضمنّت في مواضعَ معدودة بضع عشرة صفة ربّانيّة، توزّعت بين صفات الجلال والكمال والجمال، وكلّها تسير في نسَقٍ محكم، يدلّ على كمال الرّبوبيّة، وعظمة الألوهيّة، ويقود إلى النّتيجة التي تمهّد لها السّورة من أوّلها؛ وهو وجوبُ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 837.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 367.

إخلاص العبادة للّه وحده، والانقياد المطلق لأمرِهِ ونهيه[1]، فإنّ مَن هذا شأنُه في علمه وقدرته، ورحمته وحكمته؛ لا يُعبد سواه، ولا يُتّبع غيرُ هداهُ.

سِرُّ استهلال السّورة بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾:

الافتتاح بالتّسبيح تنزيه للذّات العليّة عن كلِّ نقصٍ

افتتاح السّورة بذكر التّسبيح في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يُنْبِئُ عن غاية سامقةٍ؛ إذ تُجَلّي أسمى المقاصد بإثبات صفات الكمال للّه تعالى، وتُصَدِّع باطل المنحرفين الذين شبّهوه بما يناقض جلاله، فكان التّسبيح مذعنًا بتنزيه الذّات العليّة عمّا نَسَب إليه الضّالّون من نقص أو عيب، فأوضح بذلك أنّ حقيقة الإيمان تقوم على تعظيم الخالق بما يليق بِمَجْدِه وعظمته[2].

سرّ التّعبير بالفعل ﴿سَبَّحَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تسبيحٌ يتجدّد أنفاسًا وديمومةٌ تتعدّدُ أجناسًا

التّسبيح بفعل المضيِّ إشارةٌ إلى أنّ هذا التّنزيه للحقّ تعالى أمرٌ قد تقرّر واستقرّ في فِطر العباد، وجرى به أمرُ اللّه قديمًا لعباده، بل أُلْهِمَتْهُ الخليقة، وأودِعت أدلّتُهُ في طبائع الموجودات، حتّى ما لا اختيار له من جمادٍ وسواه[3]، فهو وارد على صيغته الماضويَّة[4] ليدلَّ على دوام التّسبيح واستمراره[5].

وفعل التّسبيح يحتمل دلالاتٍ عدّةً، منها: الصّلاة؛ لأنّه يجري فيها التّسبيح، ومنها: ذِكْرُ اللّه تعالى، ومنها: الإذعان؛ أي: الخضوع للمولى سبحانه من جميع ما في السَّماوات والأرض؛ من الشّمس والقمر والنّجوم، والإنس والجنّ والأشجار والجبال والأنهار، وغير ذلك[6]. كما أنَّه يَحْتَمِل معانيَ متعدّدةً تتنوّع بتنوّع المخلوقات؛ فالعاقل

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 356.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 452.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 256.
(6) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 400.

يسبّح بلسان المقال، ناطقًا بحمْدِ مولاه، ومنزّهًا إيّاه عن كلّ نقص، والجماد يسبّح بلسان الحال، شاهدًا بوجوده على عظمة صانعِه، الذي أبدَعَ فأحسَنَ، وخلق فأنْعَمَ، وأوجد فأتقَنَ[1].

وهو يحتَمِلُ الحقيقةَ والمجاز، فالحقيقة يكون بالتّنزيه والتّقديس كما ينطق به العقلاء من ملائكةٍ وأنبياء بلسان المقال، والتّسبيح مجازًا يكون بلسان الحال؛ فإنّ عظمة الصّنعة، وجلال الخلقة تنبّه الرّائيَ على التّسبيح[2]، فكلّ ذرَّة في الكون ناطقة بجمال الصّنع، دالَّةٌ على كمال الخلق. وإنْ حُمِل التّسبيحُ في الآية على التّنزيه بالقول؛ فالمسبّحون هم حملةُ العرش والملائكة المقرَّبون والأنبياء والصّالحون. وإنْ حُمِل على التّسبيح المعنويِّ؛ فكلُّ ذرَّة في السّماوات والأرض والجبال والبحار، والشّجر والدّواب والنّور والظّلمة، حتّى العرش والكرسيّ؛ كلٌّ يشهد بلسانِ وجودِه على عظمة الخالق، خاضعًا لجلاله، مُقرًّا بكبريائه[3].

وفي إيثارِ التّسبيح على الحَمْدِ والتّنزيه في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، إشارةٌ بليغة إلى التّعريض بالمشركين الذين قصّروا في أعظم أنواع التّسبيح؛ إذ أغْفَلوا أصلَ الأصول في التّنزيه؛ وهو نفيُ الشّريك والنّدّ عن ذاته سبحانه[4]؛ ليكون لفظًا جامعًا يَدْمَغُهم بتفريطهم، ويُظهر عوار معتقدِهم، وفساد مذهبِهم.

سرّ تعدية الفعل ﴿سَبَّحَ﴾ باللّام، ومعناها ودلالاتها:

السِّرّ في تعدية فعل التّسبيح باللّام في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أنّها جاءت لتؤكّد قوّة وصول الفعل إلى المفعول[5]، فكأنّما التّسبيح قد

اللّام شاهدة بالتّوحيد والفعل خالص لله في التّسبيح والتّقديس

(1) محمد علي، مختصر التفسير: 3/ 302.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 256، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 165.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 442.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 100.

تجلّى خالصًا لوجه الله تعالى، لا يشاركه فيه مشارك، ولا يعترض مسلكَه عارضٌ، فما التّسبيح إلّا له وحده عزّ في علاه[1]. واللّام في: ﴿لِلَّهِ﴾ لا تخلو: إمّا أن تكون لامَ تأكيدٍ، كاللّام في قولك: (نصحتُه ونصحتُ له)؛ حيث تؤكّد وصولَ الفعل إلى مستحقّ التّسبيح في تجليةِ العبادة به سبحانه[2]. وإمّا أن تكون لامَ تعليلٍ وغايةٍ؛ تفيد أنّ التّسبيح وُجِدَ لأجله تعالى، ولوجهه الكريم؛ فما نطق به اللّسان إلّا خالصًا له، وما دلّ عليه الكونُ إلّا شاهدًا بوحدانيته[3].

سرّ التّعبير بالاسم الأحسَنِ ﴿لِلَّهِ﴾:

تنزيه الذّات الإلهيّة عن شوائب الشّرك ببيان تفرّدِهِ بالألوهيّة

إيثار الاسم الأحسَن (الله) في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ يَكْمُن في إظهار كمال التّنزيه الذي يقتضي نفيَ الشّريك أصلًا؛ إذِ الوحدانيّة هي الذّروة العليا من صفات الجلال التي حار في إدراكها المشركون والمانَويَّة وأهلُ التّثليث والبراهِمَة، فجاء الاسم الأعظم (الله) المشتقّ من الإله الدّال على تفرّد ذاته بالألوهيّة المطلقة[4]؛ ليكون أنصعَ بيانًا لهذا التّنزيه الأسمى؛ إذ لا يليق بالتّسبيح العامّ إلّا أن يختصّ بمن هو منفردٌ بالرّبوبيّة.

الغرض من تّقديم الجارّ والمجرور ﴿لِلَّهِ﴾ على الفاعل:

تقديمُ الجارّ والمجرور على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حصرٌ للفعل في مستحقّه الأوحد[5]، وتخصيصٌ للتّنزيه بذاته المقدّسة، كأنّما التّقديم هنا إعلانٌ بأنّ التّسبيح لا يَصْدُق إلّا عليه سبحانه، ولا يحقّ إلّا له عزّ في علاه.

تقديم الجارّ والمجرور حصرٌ وإعلانٌ وتخصيصُ التّسبيح للرّحمن

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 197.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 434.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 7/ 472.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 356 - 357.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 27/ 371.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَا﴾ دون (مَن):

عمومٌ فيهِ دلالةُ القولِ والفعلِ والحالِ على تنزيهِ الواحدِ المتعالِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أعمُّ الموصولات وأدخَلُها في الإبهام، وهوَ يعمّ الموجوداتِ كلَّها من عاقلٍ وجامد وذي روح، فكلُّها ناطقة بتنزيه الحقّ عن الشّريك، فمنها ما ينطق باللّسان المبين، كتسبيح الأنبياء والصّالحين، ومنها ما يسبّح بالفعل المُحْكَم، كتدبير الملائكة في ملكوته، ومنها ما يَشْهَدُ بالحال الصّامت، كافتقار كلّ موجود إلى من بيدهِ مقاليد السّماواتِ والأرض، فالتسبيح يشمل كلّ موجود في العُلْويّات والسُّفْليّات، عينًا كان أو أثرًا، ظاهرًا أو خفيًّا، فكلّها ناطقة بتسبيح خالقها، شاهدة على بديع صنعه، دالّة على كمال صفاته، وأنّه مستحقّ لنعوت كبريائه[1].

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِي﴾:

ظرفيّة كونيّة تسع الموجوداتِ وعمقٌ يستوعبُ المخلوقاتِ

حرف الظّرفيّة ﴿فِي﴾ هنا يتجاوز المعنى المكانيّ المحدود إلى دلالةِ شموليّةٍ كبرى، فهو ظرف يشمل كلّ ما في السّماوات والأرض من موجوداتٍ ماديّة ومجرَّدة، ثابتة ومتحرّكة، مرئيّة وغير مرئيّة، فما من ذرَّةٍ في هذا الكون الفسيحِ إلّا وهي داخلة في هذا الظّرف الإلهيّ استقرارًا فيها، أو جزءًا منها[2]، وما من مخلوق في العوالم العلويّة أو السّفليّة إلّا وهو مندرج تحت هذه الدّائرة الكونيّة الواسعَةِ.

سرّ إسناد التّسبيح لأهل السّماوات قبلَ أهل الأرض:

تلميحٌ بعلوّ منزلتها وإشادةٌ بفضلها وسَبْقِ خَلْقِها

أُسْنِد فعل التّسبيح لأهل السّماوات قبل أهل الأرض تلميحًا إلى علوّ منزلتها وشرف مكانتها؛ إذ هي دار الملائكة المطهَّرين الذين لا يعصون الله ما أمرهم، وهم أكثر الخلق تسبيحًا وعبادةً، وقد سبق خَلْقُها الأرضَ بما فيها من أهواء وشهوات، فكان تقديمُها إشادةً بفضلها، وتنويهًا بطهارتها.

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 530، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 165.

سرّ التّعبير بالسّماوات جمعًا والأرض مفردًا:

تعدُّد السّماوات في الذّكر إشادةً، ووحدة الأرض إشارةً وإفادة

استعمل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمعًا، والأرض مفردًا؛ في إشارة إلى سعة العوالم العلويّة، وتعدّد طبقاتها السّبع؛ حيث تتنوَّع منازل الملائكة ودرجاتها في العلوّ والقداسة، بينما الأرض على كبر حجمها فهي عالم واحد متّصل، يجمع الخلائق على تنوُّعها في ظلّ وحدة المكان، فالجمع للسّماوات إيماءٌ إلى تفضّلها بكثرة العوالم والمخلوقات الطّاهرة، والإفراد للأرض تَنبيه إلى وحدتها على الرّغم ممّا فيها من تعدُّد الأجناس والأهواء، وخص السَّماوات والأرض دون غيرها من المخلوقات؛ لأنَّهما الأعرف للمخاطبين.

سرّ عدم اقتران (ما) بالأرض كما اقتَرَنَتْ بالسّماوات:

عَطْفُ الأرض دون (ما) إعلانٌ بأنّ الخضوع متّحد يعلو الأزمان والأكوان

لمّا قرن ﴿مَا﴾ بالسّماوات لم يستعملها مع الأرض كذلك في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنّه خطاب متّصل بما كان في آخر سورة الواقعة، وهو موجَّه لأهل الخصوص، بل أخصّ الخواصّ؛ فلم يحتج إلى تأكيدٍ بإعادة ﴿مَا﴾، فاكتفى بالعطف المجرّد، جاعلًا السّماوات والأرض بمنزلةِ الشَّيء الواحد في نظر العظمة الإلهيّة؛ حيث استوى عندهما في الخضوع والتّنزيه، فكان الحذف إشارةً إلى وحدة التّسبيح[1].

معنى الواوِ ودلالتُها في قوله: ﴿وَهُوَ﴾:

بين الحال والاستئناف إظهارُ العزّة والقدرة والحكمة والتّدبير

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ حاليّة، أو استئنافيَّة تفتح مجال التّوجيه، و(هوَ) مبتدأٌ يشير إلى الذّات الإلهيّة العليا، و﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ خبر أوّل يظهر القدرة والانتصار، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ خبر ثانٍ يجلّي الحكمة والإتقان[2]، فكأنّما الآية قصدُها تأكيدُ أنّ كلّ ما سبق من تسبيح وتقديس هو نتيجة هذه العزّة المطلقة، والحكمة المتقنة.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 252.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 452.

سرّ التّعبير بتعريف الطَّرفين ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾:

دلالـةُ اقـتـدارٍ لا يُجارى وسلطانٍ لا يُبارى

التّعبير بالضّمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وإيراد الخبر مُعرَّفًا باللّام إشارةٌ إلى حصر العزّة والحكمة به سبحانه؛ إذْ تعريف الطَّرفين يفيد القصر والاختصاص، فدلّ ذلك على نفي العزَّة والحكمةِ عن غيرِه، وهو قصْرٌ إضافيٌّ؛ إذ العزَّة والحكمة وصفانِ ثابتانِ لغيرِه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، وقال سُبحانَهُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [لقمان: 12]؛ إلّا أنَّ عزَّة غير الله تعالى وحكمتَهُ بالنِّسبة إلى كمال عزَّة الله تعالى وكمال حكمَتِه كلا شيء.

وفي جملة القصْرِ نفيُ الألوهيّة عمّا سواه بطريقِ اللُّزوم؛ لأنّ مَن لم يتّصف بالعزّة المطلقة والحكمة البالغة لا يصلح أن يكون إلهًا، فاستحقاق الألوهيّة لا يكون إلّا للواحد القهّار الذي انفرد بصفات الكمال دون سواه[1]. والتّعبير بلفظ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ يتضمّن إشارة بليغة إلى كمال القدرة؛ إذ يدلّ على القاهر الذي لا يُغالب ولا يجارى، والمقتدر الذي لا ينازع ولا يبارى، فلا يعلو عليه شيء، ولا يعترض مشيئَتَه أحدٌ[2]. والعزيز وصف دالّ على الامتناع والغلبة، وفيه إشعار بأنّ كلّ ما في السَّماوات والأرض من تسبيح وتنزيه، إنّما هو خضوعٌ لعزّته وانقياد لعظمته، ونفيٌ قاطع لكلّ شريكٍ يُتوهّم في الألوهيّة[3]، فإنّ المشاركة لا تُتصوَّر مع مَن عزّ جانبُه.

سرّ اختيار وصف ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾:

يضع الأفعال في مواضعها بعلم لا يُخطئ ولا يتخلّف

في هذا الوصف تنبيهٌ إلى كمال التّدبير، وإحكام التّقدير، فإنّ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ هو الذي يضع كلّ شيء في موضعِه اللّائق، فلا يُخلّ نظام، ولا يُضَلّ مرام، بل تجري أفعاله على مقتضى العلم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358.

المحيط، لا يعتريها خللٌ، ولا يشوبها عبَثٌ، ولا يَعْرِضُ دون تعلّقها بالمعلومات مانعٌ[1].

سرّ تقديم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، ودلالةُ الجمع بينهما:

القدرة أساس الإدراك والعلم ثمرة التّمكين والإتقان

قُدِّم اسم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على اسم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنّ الأوّل يدلّ على كمال القدرة؛ والآخَرُ يشير إلى كمال العلم، ولمّا كان إدراكُ كمالِ القدرة أسبقَ في الذّهن من إدراك كمال العلم، إذْ لا يتحقّق العلم بالأشياء إلّا بعد التّسليم بقدرة فاعلها؛ ناسب أن يُقدّم ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لتتقدّم القدرة في الاعتبار كما تقدّمت في الذِّكر[2]. كما أنَّ الأوّل يُناسب عموم التّسبيح القهريّ للجماد والحيوان، وأنّه خضوع ليس اختياريًّا بل بقهره، ثمّ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لبيان أنّ ذلك التّسبيح يكون بحكمتِه تعالى، والجمع بينَهُما مقصودٌ مرادٌ، فَهُما من الصّفات الرّبّانيّة الجامعة للكمال الدّالَّة على تنزّهه من النّقص[3].

دلالة التّعبير بالتّذييل جملةً اسميّة:

التّسبيح للعزيز الحكيم بيان التّذييل وإشعار التّعليل

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ اعتراض تذييليّ تقريريّ، أودِعت بين طيّاته الآية تأكيدًا لمضمون ما قبلها، وإشعارًا بأنّ تسبيح مَن في السّماوات والأرض إنّما يَنْبَثِقُ من عظمة الإله الذي اجتمعت له العزّة المطلقة والحكمة البالغة، فكأنّه تعالى بهذا الوصف يُعْلِن سببَ انقياد الكائنات لتسبيحه، وعلّة خضوعها لقدرته[4].

وَوُرودُ الصّيغة الاسميَّة مُؤْذِنٌ بِالدّلالة على الثّبوت والاستمرار، فهذان الوصفان مُؤْذِنان بثبوت العزّة والحكمة له تعالى لا يتغيَّران ولا يزولان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 203.

دلالة الاتّفاق والاختلاف في مطالع سورتي الحشر والصّفّ:

بين الحذفِ البليغِ والتّناسق الفريد ملامحُ الإعجاز البيانيّ في فاتحةِ الحديد

ابتدأ اللّهُ ﷻ قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دون تكرار لفظ (ما)؛ ليتناغم مع ما يليه من قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وليُحَقِّق التَّناسق البلاغيَّ العجيب؛ إذ لو ذكرت (ما)؛ لاختلّ هذا التّوافق اللّفظيُّ البديعُ. ثُمّ أَتْبَعَ ذلك بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: 4]، فتكاملت العبارات في نسَقٍ بديع يُظْهِر جمالَ البيان القرآنيّ. أمّا المسبّحات الأُخر، كسورتي الحشر والصّف؛ في قول الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: 1] [الصف: 1]؛ فلم يَرِد فيها ما يستدعي هذه المناسبة الدّقيقة، فجاءت كلّ سورة بما يلائم سياقها، ويراعي خصوصيَّةَ نظمِها[1].

ولقد تجلَّت حكمةُ البيان القرآنيّ في تنوُّع صيغ التّسبيح عبر السّور المسبّحات، فابتدأ بالمَصْدَرِ في سورة الإسراء ليعبّر عن أصل المعنى وجوهره، ثمّ انتقل إلى الماضي في الحديد والحشر والصّفّ؛ ليدلَّ على تحقُّق التّسبيحِ في الزّمن الماضي، وجاء بالمضارع في الجمعة والتّغابن؛ ليشمل الحالَ والاستقبال، وختم بالأمر في الأعلى ليعلّم العباد دوام التّسبيح في جميع الأزمنة، فجمع بذلك بين جوهر الأصل، وسبق الماضي، وشمول المضارع، وإلزام الأمر؛ ليحقّق استيعابًا كاملًا لجهات التّسبيح المشهورة، ويربّي المؤمنين على دوام ذِكْرِ الله تعالى في كلّ وقت وحين[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّسبيح والتّقديس:

التَّقديس أعمُّ من التَّسبيحِ

يفترق التّسبيح عن التّقديس على الرّغم من اشتراكهما في أصل

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 2/ 476.
(2) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/ 551.

المعنى؛ وهو تنزيه الله تعالى وتَبْعيدُه عن كلّ سوء، إلّا أنّ بينهما فروقًا دقيقة، فالتّسبيح يختصّ بتنزيه الله عن صفات النّقص كالشّرك والعجز، ويُستعمل غالبًا في حقّ الله تعالى، ولا يقال رجل مسبَّح. بينما التّقديس أوسع دائرة؛ فيقال: رجل مقدَّس؛ أي: منزَّه عن مُسْقِطات العدالة، ويُستعمل التَّقديس لتنزيه الله تعالى مما لا يليق بجلاله من اتِّخاذ الولد والزَّوجة ونحو ذلك[1]. فالتّقديس أشملُ من حيث الاستعمال، وهو يدلّ على الطّهارة الكاملة، بينما التّسبيح يركّز على نفي النّقص، ومِن ثمّ كلّ من سبّح الله فقد قدَّسه، وليس كلّ من قدّسه سبّحه، ولهذا قالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30] مقدّمين التّسبيح لاختصاصِهِ بالله تعالى، ثمّ التّقديس لما فيه من العموم[2]. فجاء التّعبير بالتّسبيح؛ لأنّ التّسبيح أخصّ وألصق بجلال الله تعالى، وتنزيهه عن النّقص، وهو الذي يليق بإسناده لما في السّماوات والأرض من مخلوقات ناطقة وغير ناطقة.

(1) عبد الجبار زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 346 - 347.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124 - 125.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"